دراسة في "فتح نوافذ القرآن"

للشيخ إبراهيم أبي اليقظان

د. حمو بن عيسى الشيهاني

كلية العلوم الإسلامية- جامعة الجزائر

مقدمة:

الحمد للّه سابغ النعم على الإنسان، أغلاها نعمة الهداية إلى الإيمان ونعمةُ إنزال القرآن، وإنَّ حاجة الإنسان إلى القرآن ماسّة في كلِّ آن؛ فهو منهج الحياة الطيّبة مهما تقلّبت أحوال الزمان، وسببُ السعادة الأبديّة في رحاب الجِنان، ذلك لأنَّ مُنزل القرآن هو خالق الإنسان والأكوان: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ (الملك: 14)

إنَّ حياة الإنسان الدنيويّةَ لها علاقة بالغيب (النسبيِّ)؛ الذي لو كان الإنسان يعلمُه لاستكثرَ من الخير وما مسَّه السوءُ، أمّا الآخرة ومنازلها فهي كلُّها غيبٌ مطلَقٌ (حقيقيّ) يستحيل على الإنسان أن يدركَه، مهما أوتيَ من عبقريّةٍ أو استعان بالتراكم المعرفيّ للبشريّة، بل إنَّ السبيلَ الوحيد لمعرفة أحوال الآخرة المصيرِ الأبديّ هو طريق الوحي، ومن هنا يزداد الكيِّسُ شعورًا بحاجة الإنسان إلى نزول القرآن؛ إذْ منَّ اللّه علينا بفتح نوافذَ يُطلعُنا من خلالها على مصير الناس الأتقياء والأشقياء ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴾ (الشورى: 07)

إنَّ للإيمان باليوم الآخر الأثرَ البليغَ في استقامة العبد مظهرًا ومخبرًا، فإن غفل الإنسان عن ذكر هذا اليوم المصيريّ طرأ عليه النسيان فأفقده العزمَ علَى الطاعةِ والوقوفِ عند حدود اللّه؛ فإنَّ من أسباب إقدام العبد على معصية ربّه غفلتَه عن الموت والحساب ومقامِ ربِّه، ولو تذكّر مصيره لنهى النَّفسَ عن الهوى، والمرشَّحُ الأكثرُ حظًّا لِأَنْ يَقوَى على نهي النفس عن الهوى هو الذي بلغ إيمانُه بيَوم الدين درجة اليقين؛ فقد ذكر اللّه من صفات المتقين أنَّهم ﴿ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ (البقرة:04) أمّا إن شكّ العبدُ فِي الأمر فَقَدَ المناعةَ الإيمانيَّةَ وعجز عن ضبط

نفسه، فيصَعُب عليه مقاومة الإغراء، فيستجيب لداعي الهوى، عاصيًا مولاه جِهارًا أو في خفاء، غافلاً عن ذكر اسم ربّه العظيمِ الرقيبِ الحسيبِ...

إنَّ المسلمين جميعًا يعلمون بالبعث والحساب ولكن واقعهم يشهد انحرافاتٍ فِي العبادات والمعاملات؛ فهذه المخالَفاتُ مؤشِّراتٌ دالّةٌ على أنّ الخلل حاصل فِي الشكّ فِي هذا اليوم وعدمِ اليقين به، كما قال الشيخ أبو نصر:

نرى الأمر عن علم اليقين تيقُّنًا ونعمل أعمال الذي شكَّ في الأمر

وما تمادِي العصاةِ فِي معاصيهم إلاَّ نتيجة الشكّ فِي البعث والحساب[1]، ولو أيقن المسلمون بالبعث لكان حالهم غيرَ هذه الحال، ولذلك كان القرآن في كثير من الآيات يذكّر باليوم الآخر، ويربط التكاليف الشرعيّةَ بالإيمان به، ومن ذلك قولُه تعالى: ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿٥﴾ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (المطففين:04- 06) وقولُه تعالى: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ ﴾ (النور:02)

من أجل هذه العلاقة المباركة بين هداية القرآن وأركان الإيمان واستقامة الإنسان جعل الشيخُ أبو اليقظان من القرآن الكريم منطلق دعوته لإصلاح الأوضاع وتغييرِ الطِّبَاع، ورأى بأنَّ أمراض المسلمين على تعدُّدِها وتفاقمِها يوجَد شفاؤُها في هداية القرآن الكريم؛ فعقد العزمَ على "فتح نوافذ القرآن".

نبذة عن حياة الشيخ أبي اليقظان:

الشيخ إبراهيم بن عيسى أبو اليقظان شخصية جزائريّة وإسلاميّة مرموقة، تعدّدت مجالات عمله، وتنوّعت أساليبُ نشاطه، ووسائلُ دعوته وجهاده؛ "إنَّ إبراهيم كان أمّةً"

ولد بمدينة القرارة – ولاية غرداية (وادي ميزاب) بالجزائر يوم 29 صفر 1306هـ الموافق 5 نوفمبر 1888م

• دخل الكتّاب القرآني وحفظ القرآن ثمّ أخذ في تعلم الفنون من عربية وشرعية على يد أستاذه الشيخ الحاج عمر بن يحيى ثم سافر إلى مدينة بني يسجن ليكمل دراسته على قطب الأئمة الشيخ طفيش الحاج محمد بن يوسف.

• في سنة 1912م سافر إلى تونس وواصل دراسته في جامع الزيتونة ثم الخلدونية.

• في سنة 1914م ترأس أول بعثة علمية جزائرية إلى الخارج وكانت وجهة البعثة إلى تونس.

• في سنة 1920م كان عضوا بارزا في الحزب الحر الدستوري التونسي وتربطه بزعيمه عبد العزيز الثعالبي صداقة شخصية.

• في سنة 1926م أصدر أولي جرائده "وادي ميزاب" تحرَّر وتوزّع في الجزائر وتطبع في تونس، أصدر ثماني جرائد ما بين 1926 و1938م وهي : وادي ميزاب، ميزاب، المغرب، النور، البستان، النبراس، الأمة، الفرقان.

• في سنة 1931م أسّس المطبعة العربية، وهو أول وطني جزائري يؤسّس مطبعة وطنية حديثة في الجزائر.

• في سنة 1931م انضم إلى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

• في سنة 1934م انتخب عضوا في المجلس الإداري لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

• نشر في أكثر من جريدة ومجلة (زيادة إلى جرائده) منها الفاروق والإقدام في الجزائر والمنير والإرادة في تونس والمنهاج في القاهرة.

• تفرّغ للتأليف بعد انقطاعه عن الصحافة، ترك للمكتبة العربية والإسلامية أكثر من ستين مؤلفا بين كتاب ورسالة، عدا المقالات والأشعار والمذكرات.

• توفي في القرارة يوم الجمعة 29 صفر 1393هـ موافق 30 مارس 1973م رحم اللّه المجاهد الفقيد وأسكنه فسيح الجنان ووهبَ الأمَّة المكلومةَ من أمثاله العديدَ.

الشيخ أبو اليقظان من العلماء العاملين الذين أبلوا بلاءً حسنًا، في سبيل إيضاح الهداية القرآنيّة وربط الناس بها من أجل أن يخرجوا من الظلمات إلى النور

بإذن ربّهم، وهو من المجدّدين المجاهدين بكلمة الحقِّ؛ فكان حقًّا أبا اليقظان اسمًا وفعلاً؛ إذْ أيقظ الجزائريّين والمسلمين من سباتهم وغفلتهم، وفتّح أعينَهم على حقائق دينِهم، ووطنِهم فوعَوْها وعيًا جيّدًا[2]، قال عنه أخوه في درب الجهادِ الشيخُ أحمدُ توفيق المدنيّ: «والشيخ أبو اليقظان عالم جليلٌ... لا يتكلّم إلاَّ عن عقيدة، ولا يكتُب إلاَّ عن إيمان، ولا يجاهد إلاَّ في سبيل الإسلام وبلاد الإسلام، وقد أظهرت الأيام من بعدُ أنَّه مقارعٌ مجاهدٌ، ومقاومٌ معاندٌ، صرعَ الاستعمارَ ولم يصرعهُ الاستعمارُ، ضربَ بسهمٍ في الجهادِ الصحفيِّ والفكريِّ ما لم يبلغْ أحَدٌ في الجزائرِ شأوَه»[3].

مـؤلَّفـــــاتُـه:

خلَّف الشيخ أبو اليقظان حوالي ستين مؤلَّفًا، بين رسالة وكتاب عدا الصحفَ والمذكراتِ؛ منها:

- ديوان أبي اليقظان ج1 سنة 1931م
- وحي الوجدان في ديوان أبي اليقظان (مخطوط)
- سليمان الباروني باشا في أطوار حياته
- إرشاد الحائرين 1923م
- الجزائر بين عهدين الاستغلال والاستقلال (مخطوط)
- ملحق سير الشماخي (مخطوط)

ومن مصنَّفاته في مجال التفسير: "فتح نوافذ القرآن"، "أضواء على بعض أمثال القرآن"، "أطوار التكوين والفناء في القرآن"، "تفسير الجزء الأوّل: (سورة الفاتحة والسور القصار ـ من المرسلات إلى الخاتمة)"، "أشعّة النور من النور"، "أقمار من سورة القمر"، "عناصر الفتح من سورة الفتح"، "صبر يوسفَ يتجلّى في مِحَنه"، إلى جانب مقالاته التفسيريّة العديدةِ التي ضمّنها جرائدَه الرائدة.

كان أبو اليقظان مجاهدًا بالكلمة الصادقة مسخِّرًا لذلك لسانه ويراعه، معتقدًا أنَّ الصحافة رسالة نبيلة؛ لذلك يؤكّد على ضرورة تميّزها بأهدافٍ محدَّدة سامية ومبادئَ أصيلةٍ سَنيّة، وأساليبَ حكيمة واقعيّة...

"فتح نوافذ القرآن":

يعنى هذا البحث بدراسة كتاب "فتح نوافذ القرآن" أحدِ أشهر مصنّفات الشيخ أبي اليقظان في مجال التفسير، الذي انطلق في تأليفه من الإشكالية الآتية: **لماذا أصبح المسلم لا يتأثّر بالقرآن الكريم التأثّرَ المعهود في صدرِ هذه الأمّة المجيد؟**

لاحظ المؤلِّف أنَّ القرآن الكريم تُتلى آياتُه في الإذاعات ومختلِف المناسبات إلاَّ أن حالَ المسلمين لم يَصْحُ من غفلَته، فقَصَدَ من فتح نوافذ القرآن تذكيرَ المسلمين بمصيرهم السرمديِّ؛ لأنَّ المُوقِنَ بالمصير يجدُّ إليه المسير ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ (النازعات: 40- 41). وذلك عن طريق إيضاح الهداية القرآنيّة وربط الناس بها لتصطبغ بها حياتهم ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ (الإسراء:09).

تسعى الدراسة للإجابة عن الأسئلة الآتية:

- ما هي البواعث على تأليف الكتاب؟ وما مصادره؟.
- ما هي مباحث الكتاب ونوافذُه؟ وما هي طريقة عرضها؟ وهل تصلح نموذجًا لمنهج التفسير الموضوعيّ؟.
- ما هي المميّزات العلميّة لـ"نوافذ القرآن"؟ وما طبيعة النَّسَق المنهجيّ في كتابات الشيخ أبي اليقظان في التفسير؟.

أولاً: طبيعة تأليف"فتح نوافذ القرآن":

يجدر بالدارِس أن يطّلعَ على عصر المؤلِّف وبيئته، وأن يضعَ مُصنَّفَه في إطاره الزمنيّ وظروف كتابتِه، سواء كان في حقل التفسير أو غيره من مختلِف مجالات العلم وتخصّصاتِه «ولا يليق بالدارس أن (يسلَخ) المفسرَ عن عصره، وأن

يُحضرَه إلينا ليعيشَ عصرَنا، أو أن يسلخَ المفسرَ المعاصرَ عن عصرِنَا، ليعيشَ عصرًا سابقًا، ليسَ له مشكلاتُ وقضايا واهتمامُ هذا العصرِ!»[4].

ألّف الشيخ أبو اليقظان "فتح نوافذ القرآن" في فجر استقلال الجزائر؛ إثرَ تحرّرها من نير الاحتلال البغيض الذي اجتهد بمختلِف وسائله الماكرة - أزْيدَ من قَرنٍ- على سلخ الشعب الجزائريّ من شخصيته الإسلاميّة الأصيلة ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾(التوبة:32)، وكان المؤلِّفُ يجاهد بالقرآن المستعمرَ وضحاياه الأتباعَ المسلوبينَ جهادًا كبيرًا، وكان يَحزُّ في قلبِه عدمُ مبادرة المسلمين إثرَ استقلال بلدانهم إلى إصلاح ما أفسدَ الاستعمارُ وما غرسه في جسم الأمّة المسلمة من باطلِ المعتَقَدات وسيِّءِ الأخلاق والعادات امتثالاً لقول الله تعالى الذي منَّ عليهم بالنصر والتمكين: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ (الحج: 40- 41)

حُظي كتاب "فتح نوافذ القرآن" بالطباعة[5] دون أغلب تراث الشيخ أبي اليقظان الفكريّ! أليس من الوفاء يا أُولي البصائر أن **نبادر** إلى طباعة تراث من جاهد و**بادَر** لتأسيسِ أوّل مطبعة عربيّة في الجزائر[6]، في ليل الاستعمار الجائر؟!

ثانيًا: ما الباعث على تأليف الكتاب؟

الأصل أن يكون لكلِّ مؤلِّفٍ دواعٍ تدفعه للكتابة، وأهدافٌ يسعى إلى تحقيقها من تأليفه؛ .والباعثُ على "فتح نوافذ القرآن" هو شعورُ المؤلِّفِ الفاتحِ بواجب إصلاح الواقع المزري الذي يعيشُه المسلمون؛ الذين تحرّرت أغلبُ بلدانهم من الاستعمار العسكريّ، ولم يستطيعوا أن يُحرّروا أنفسهم من عبادة الأهواء والشهوات، إذ لاحظ في العالَم الإسلاميّ وجودَ هذه المفارقات:

❖ موجة عارمة تكاد تغمر المسلمين وترجع بهم إلى الجاهليّة الأولى من الزيغ والضلال...

❖ قراءة القرآن الكريم في مختلِف المناسبات، وتلاوةُ آياته المباركة بألحان عذبة وأصوات رخيمة في إذاعات العالَم الإسلاميّ.

= إلاَّ أنَّ الحصيلة المؤسِفة هي: عدم التبدّلِ في الأخلاق والتحسُّنِ في الطباع؛ فلَم يَعُد للوعد والوعيد أثرُه المعهود في صدر هذه الأمّة المجيد.

= بناءً على ذلك انتهى المؤلّف إلى القناعة بالأمْرَين الأمَرَّين الآتيين: و"الحقيقة المرّة خيرٌ ألفَ مرّة من الوَهم المريح!"

- **الأمر الأوّل:** «القرآن العظيم الذي يكرّرونه آناء الليل وأطراف النهار لا يزيدهم إلا إمعانًا في الضلال وفسادًا في الخُلُق!».

- **الأمر الثاني:** نوافذ القرآن «إلى أهوال الآخرة لا تزال مُحكَمَةَ الإغلاق؛ لا ينفُذ نورُه إلى بصائرهم ولو شعاعًا من نور الله إلاّ قليلاً»[7].

وبما أنَّ تلاوة القرآن الكريم وسيلةٌ للعمل بمقتضاه، امتثالا لقول الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ (النساء: 66) وبما أنَّ هداية القلب سببٌ لاستقامةِ الجوارح واستباقِ الخيرات، اهتدى الشيخُ أبو اليقظان إلى الانتقال إلى خطوة عمليّة؛ إذْ سَعى إلى فتح ما أمكن فتحُه من نوافذِ القرآن حتى تشعَّ أنواره منها إلى بصائر الناس.

وإذا حلّت الهدايةُ قلبًا نشطت في العبادة الأعضاءُ

يقول المؤلِّف رحمه الله مبيِّنًا غرضَه من "فتح نوافذ القرآن": «رأيتُ من الواجب عليّ...أن أشْرَعَ من تلك النوافذ ما أمكن لي فتحُه حتَّى تشعَّ أنوارُ القرآن منها إلى بصائرهم؛ فأشخّص لهم نورَه أمامَ بصائرِهم بكلّ ما أمكنني ذلك إذا أراد الله هدايتهم؛ كما تُضاعِف آلةُ (ترانْسْفُورْمَاتُور) بأبراجها قوّةَ الكهرباء من مركزها إلى أبعاد شاسعة»[8].

اِجتهد الشيخُ أبو اليقظان رحمه الله في فتح نوافذ القرآن وإنزال هداياتِه إلى واقع الناس ليتطلّع المؤمن البصيرُ إلى هدي الله عزّ وجلّ، لأنَّ الموقن بالمصير يَجدُّ

إليـه المسـير، ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ (النازعات: 40- 41).

ثالثًا: علاقة "نوافذ القرآن" بـ"مشاهِد القيامة":

نبّـه المؤلِّـفُ إلى وُجـود علاقـة خاصّـة بـين كتابـه وكتـابِ "مشـاهد القيامـة" لِلعلاّمة سيّد قُطب؛ إذ يقولُ موضّحًا إياها: «بعد أن شرعتُ في تحرير الرسالة بعنوانها "فتح نوافذ القرآن" وقَبْلَ أن أُتمَّها نبّهني بعضُ إخواني الأعزَّاءِ أنَّ للعلّامة سيّد قُطب- رحمه الله- كتابًا في نفس الموضوع باسم "مشاهد القيامة"، ولما اطّلعتُ عليه حمدتُ اللّه تعالى على هذا التوفيق، وزادني تبصرةً ونشاطًا وعلمًا وإنارةً لذهني على المضيّ في سبيلي، فحوّلتُ مجرى الرسالة للنسج على منواله مستعينًا باللّه في شرح آياته طبقَ اقتراحِ بعض إخواني الأعزّاءِ على ذلك، وإن لم أكن أهلاً لذلك كما كنت أومَأتُ إليه، وعلى اللّه اتّكالي واعتمادي، وحسبيَ اللّه ونعم النصير»[9].

للّه دَرُّك أبا اليقظان!! فإنّ شعورَكم بالواجب ومبادرتَكم للقيام به، وسرورَكم بالاطّلاع على عمل مَن سبقكم في الميدان، والاعترافَ له بفضل الأسبقيّة، وازديادَ نشاطكم على المضيّ في سبيلكم، وتواضعَكم وحسنَ توكّلِكم على اللّه... كلّ هذه أخلاقٌ كريمةٌ غاليةٌ اجتمعت فيكم، بل هي بعضٌ من صفاتكم العالية، ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ (النحل: 120) وهي من أمارات الإخلاص الذي هو أهمُّ شروطِ التوفيقِ والقَبول...

ويبقى هذا السؤال مطروحًا: ما هي الحالة التي كانت عليها الرسالة "فتح نوافذ القرآن" قبل أن يُحوّل مجراها للنسج على منوال "مشاهد القيامة"؟

رابعًا: مباحث الكتاب "فتح نوافذ القرآن":

إنَّ عِدّة مباحثِ الكتاب اثنا عشر مبحثًا، تتناول مختلِف منازلِ يوم القيامة ومشاهدِها من خلال القرآن الكريم، منها: حالة وفاة الناسِ وقبضِ أرواحهم، وما هي أحوالهم في القبر؟، وكيف يخرجون من الأجداث يوم يُنفخ في الصُّور؟، وما هي أحوال الناس في المحشر؟ من إيتاء الكتبِ وكيفية المحاسبة...، وكيف

يذهب الناس إلى مصائرهم؟: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ (مريم:85- 86) كما أطلَعَنا الكتابُ على مشاهدَ من صميم الجنّة ونعيمها واغتباطِ أهلها، وأخرى من صميم النار وجحيمها وثبورِ أهلها...

عند كلّ مبحثٍ (أيْ كُلِّ موقفٍ من مواقفِ يوم القيامة) يفتح المؤلّف نافذتين من نوافذ القرآن؛ يُطلعُنا من خلال الأُولى على حال الأتقياء، ويعقبه بفتح نافذة أخرى للكشف عن حال الأشقياء في ذلكم الموقفِ نفسه، فكان مجموع النوافذِ التي تَمَّ فتحُها أربعًا وعشرين نافذةً.

ختَم المؤلّفُ كتابَه بوضع يَدِ القارئ على أصل الداء الذي يرى أنَّه يرجع إليه السببُ الرئيسيُّ في شقاء الكثير من الناس، وهو "حبُّ الدنيا" فبيّن مفهومَه مستدِلاًّ بنصوصٍ من الكتاب والسنّة، وحذّر من عواقبه الخطيرة في الحياة الفردية والجماعيّة، الدنيويّة والأخرويّة.

خامسًا: طريقة تأليف الكتاب:

يقول المؤلّفُ - رحمه اللّه- مُبينًا عملَه في الكتاب: «وأنا في هذا لستُ مفسِّرًا، ولكنّني أحاول في ذلك تنسيق الآي في نوافذها فحسبُ، مع ما أمكنني شرحُه قدْرَ معرفتي ومقدرتي»(10). نفهم من هذه العبارة أنَّ طريقة تأليف الكتاب ترتكز على أمرين:

01- جمع الآيات القرآنيّة المتعلِّقة بالنافذة المرغوب في فتحها.

02- صياغة معانيها بأسلوبٍ خاصٍّ مع الاستشهاد بتلك الآيات وتفسيرِها تفسيرًا ميسَّرًا متناسقًا وموضوعَ نافذتها.

وهناك خطوَةٌ أساسيّة أخرى أضْفت على الكتاب ميزةً خاصّة؛ وهي المقارنة بين كلّ نافذتين متقابلتين؛ إذ إنَّ من المعلوم أنَّ أحوال الناس في جميع منازل يوم القيامة متباينةٌ، فكان الكتابُ يختم الحديث عن كلّ منزلةٍ بعَقْدِ مقارنةٍ بين الأشقياء والأتقياء؛ يُبرزُ من خلالها تمايُزَ الفريقين في كلّ المنازل، "وبضدّها تتميّزُ الأشياءُ".

إنَّ المؤلِّف على يقينٍ بمدى تأثير هذه المقارنة في نفس القارئ؛ إذ هو يرى أنَّه لأجل أن يكون لهذا الكتاب معناه البليغُ في نفس القارئ، يجب أن يَتّخذَ في المقارنة بين مصير السعيد ومصير الشقيّ في سائر مراحلهما عبرةً وذكرى، ويختار العاقلُ لنفسِه ما يختار مادام له الاختيار.

سادسًا: مصادر الكتاب:

المصدرُ الأساسُ لهذا الكتاب هو القرآن الكريم؛ إذ كان المؤلّفُ يستهلُّ مباحثَه بإيراد مجموعة من الآيات الكريمة، ويعتبرُها نوافذَ مُشْرِفَة على المشهد الذي يتناوله، وكاشِفَة لأحوال أصحابه من الأشقياء والأتقياء، من أجل ذلك عَنونَ كتابه بـ" فتح نوافذ القرآن".

ووظّفَ الكتاب طائفةً من الأحاديث النبويّة؛ استدلّ بها المؤلِّف على بعض منازل يوم القيامة وأحوال أهلها، وأغلبُ الأحاديث المستشهَد بها في الكتاب أوردها المؤلّف من مَراجِعِه الثلاثة التي عوّل عليها كثيرًا، وهي: "تيسير التفسير" و"الجُنّة في وصف الجنّة" وكلاهما للقطب اطفيّش، و"الترغيب والترهيب" لعبد العظيم المنذريّ. ونصح المؤلِّفُ القارئَ بتعهّد القرآن الكريم وتدبّر آياته، وبالرجوع إلى هذه المطوّلات لأنَّ في ذلك ما يَشفي الغليل ويشرح الصَّدْرَ للإيمان باليوم الآخر[11].

سابعًا: مميّزات "نوافذ القرآن":

01- التوازن بين آيات الوعد وآيات الوعيد:

عرْضُ الكتاب، من حيثُ الجمعُ بين كلّ نافذتين متقابلتين- في مختلِف مواقف يوم القيامة- عرضٌ متوازنٌ حكيمٌ، مستلهَمٌ من طريقة القرآن الكريم في عرض آيات الوعد وآيات الوعيد؛ ذلك أنّه لَم ترِدْ آياتُ الرحمة في موضعٍ خاصٍّ من كتاب اللّه، وآياتُ العذاب في موضعٍ آخرَ منه، بل توزّعت هذه وتلك على أغلب سُوَرِ القرآن الكريم لمقاصدَ نفسيّة وسلوكيّةٍ سنيّة أرادها ربُّ البريّة، خالقُ الإنسان ومنزل القرآن سبحانه وتعالى، ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾ (الرعد: 08) قال المؤلّفُ رحمه اللّه عن ذلك: «إنَّ القرآن الكريمَ طافحٌ بالآيات

البيّنات من أوّله إلى آخره بذكر الجنّة ونعيم أهلها لاسيما عند ذكر النار وأهلها وجحيمهم فيها، فإنَّ أسلوبَه العاليَ واضحٌ في هذه المقارنة بين الفريقين؛ كلَّما اقتضى[سياقُ] آياته بيانَ التبشير أتبعه بالإنذار، وكلَّما اقتضى سياقُ الآية الإنذارَ أتبعه بالتبشير، فكلاهما يَكْمُنُ وراءَ الآخر في نسَقٍ واحدٍ...»[12].

02- وضع اليد في موضع الداء:

من الثمراتِ العمليّة للاتِّجاه الهدائيَّ - الذي تميَّزت به كتاباتُ الشيخ أبي اليقظان- الاهتمامُ بتشخيص المرض ووضعُ الدواء في موضع الداء، معتقِدًا أنَّه لا يُغني التلميحُ عند اقتضاءِ التصريحِ، وفي ذلك يقول: «إنّ الدّواء النّاجع لا يكونُ ولن يكونَ بالدَّهنِ على الوبر، وإمرارِه على ظاهر الجرح، فإنّ هذا لا يزيد للمرض إلاّ خطورةً واستفحالًا فهلاكًا فموتًا، وإنّما يكون بسبرِ غَور الجرح وتطهيرِه بأنواع المطهّرات، وإزالةِ ما فسَد منه، ثمّ وضعِ الدّواءِ له وتضميدِه؛ والصّراحةُ خيرُ علاج للأمّة»[13].

وقد سلك الشيخُ أبو اليقظان في كتابه «مسلك التبسيط والتوضيح بعيدًا عن متاهات الشروح اللغويّة والاختلافات النحويّة والإعرابيّة»[14]، وقرّرَ -وهو يفتح نوافذ القرآن نحو الدار الآخرة- أنَّ الداء الخطيرَ الذي يُعدُّ السبب الرئيس المباشر في شقاء الكثير من الناس هو حبُّ الدنيا؛ وممّا يؤثَرُ من أقوال الحكماء "حبُّ الدنيا رأسُ كلِّ خطيئةٍ"[15]. وعرّف أبو اليقظان حبَّ الدنيا بالآتي: «أن يجعلَ لها في قلبه إبرةً مغناطيسيّةً يتَّجه لها قلبُه حيثما اتّجهت في سائر أعماله وتصرّفاته»[16]، أي أن يجعلَها غرَضًا، ولا ينبغي أن تُتَّخذ كذلك؛ بل المفروض أن لا تتعدَّى كونَها عَرَضًا ووسيلةً لبلوغ الجنّةِ ورضوانِ اللّه تعالى.

03- تفسير القرآن بالقرآن:

ومن ذلك تفسير "الأرض" الواردِ ذكرُها في آية سورة الأنبياء بـ "أرض الجنّة" استنادًا إلى آية سورة الزمر؛ التي يقول اللّه سبحانه وتعالى فيها عن أهل الجنّة: ﴿ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِىَ

﴿ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الزمر:74) يقول المؤلّف: «بهذه الأرضِ التي ورثوها فصارت لهم جنّتَهم يتبوّؤونها حيث يشاؤون، يتّضح معنى الآية الكريمة في سورة "الأنبياء" في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ (الأنبياء:105) فالأرض هنا والأرض هناك هي أرض الجنّة، ومعنى "الصالحون" في الآية هم عباده المؤمنون المتَّقون الذين قالوا عن أنفسهم في الجنّة: ﴿ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ﴾»[17].

04- تجلّي الأبعاد الوظيفية لأسماء اللّه الحسنى:

تعتبر أسماء اللّه الحسنى من أقوى أسباب معرفةِ اللّه العظيمِ واتّباعِ صراطه المستقيم، وذلك حين تُعرَضُ للغَرَض الهدائيِّ، بعيدًا عن الجدَل الذهنيِّ والتعصُّبِ المذهبيّ؛ الذي عُرف به منهجُ المتكلِّمين الذي أخمد فاعليَّة العقيدة، فإنَّ لاِختلافِ مناهج عَرْض العقيدة الإسلاميّة أثرَه على أبعادها الوظيفيّة، يقول الأستاذ محمد قطب: «تؤدِّي الأسماءُ والصفاتُ الواردةُ فِي كتاب اللّه تعالى، وفي سنة رسوله ﷺ، مَهمَّةً كبيرةً فِي هداية القلب البشريّ، وربطه باللّه سبحانه وتعالى، ولكن "المتكلمين" أفسدوا هذه المْهمّة حين حوّلوا الأسماءَ والصفاتِ إلَى قضايا ذهنيّةٍ باردةٍ جافّةٍ يدور حولَها الجدلُ الذهنيُّ ولا تحرِّكُ القلبَ، ولا تربطه باللّه»[18]، فاللّه أخبرنا بأسمائه الحسنى ليوجّهَنا إلَى معرفته وترتبطَ قلوبُنا به حتى نَتَّبعَ أوامرَه ونتَجَنَّب نواهيَه[19].

يُولِي العلماءُ المجدّدون الأبعادَ العمليّة للأسماء والصفات عنايةً كبرى، وحرصوا على تبيين تجلِّياتها على الإنسان والكون المسخّر له؛ وفي هذا الشأن يقول الشيخ بيّوض مبرزًا أثرَ صفاتِ اللّه في هداية الإنسان: «يذكِّرنا اللّه تَعَالَى بجميع صفاته، ولو كُنَّا نستحضر كلَّ هَذِهِ الصفات في جميع حركاتنا وسكناتنا، لاستقمنا ولصلَحت أعمالُنا وأحوالنا»[20]؛ فالغاية من معرفة أسماء اللّه حُسنُ عبادته، فكلّما تعرّف العبد عَلَى صفةٍ إلهيَّةٍ كلّما انفتحَ له بابٌ لاطمئنان قلبه، وازداد إيمَانًا وتسليمًا، وانطلقَ فِي عمارة الأرض معتقِدًا أنَّ مجالاتِ الحياةِ كلَّها محرابٌ للعبادة.

وظّفَ "نوافذُ القرآن" أسماء اللّه الحسنى توظيفًا مؤثّرًا؛ مناسبًا لسِياقاتِها من الرحمة والرضى... أو الغضب والانتقام... ومن ذلك قولُه في النافذة الرابعةَ عشرةَ "كيف يتردّى الكافرون في النار؟": «إنَّ القرآن العزيزَ الذي أنزله اللّه الجبَّارُ المنتقمُ سبحانَه وتعالى على قلب محمد ليُزمجرَ بصواعق الإنذار بمصير الكافرين المتكبرين الجاحدين لو كانوا يسمعون أو يعقلون في الدنيا، لما كان مصيرُهم النارَ»[21]، وقولُه في النافذةِ التاسعةَ عشرةَ "في صميم الجنّة ونعيمها": «يفتح اللّه الغفورُ الرحيمُ بهذه الآياتِ البيّناتِ لعباده المؤمنين هذه النافذةَ نحو أبواب جنّته في مشاهدَ من النعيم عظيمةٍ؛ إذا قرأها المؤمنُ الصادقُ الإيمانِ تكادُ روحُه تطيرُ من دار الهموم والأحزان... إلى هذه المشاهد...»[22].

05- مراعاة قاعدة "العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب":

من آيات اللّه ما نزل ابتداءً ومنها ما نزل لأسباب، وعملاً بقاعدة "العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب" يقول أبو اليقظان في نافذة "وعيد اللّه للكافرين" في سياق شرحه للآية الكريمة: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ (المدثر: 31): «...غضب اللّه وسخطه على الكفرة شاملٌ للمكذبين الظالمين، لا يختصّ بالوليد- الوحيد الدعيّ- ابنِ المغيرةَ المزعومِ؛ الذي قال فيه أوّلَ الآياتِ: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ (المدثر:11)»[23].

إنَّ لمراعاة هذه القاعدة أثرًا إيجابيًّا في المسلم، الذي يتلو كتاب اللّه، في كلّ زمان ومكان تزكيةً للنفس والتزامًا بالأحكام؛ لأنَّه يعتقد أنَّه معنيٌّ بالأحكام والتوجيهات القرآنيّة التي يتلقّاها، وإن كان لنزولها أسبابٌ خاصّةٌ وخوطبَ بها أوّلَ الأمرِ أشخاصٌ أو قومٌ معيّنونَ، فمتى راعى التالي لآيات اللّه - أو المستمعُ لها- هذه القاعدة عرفَ أنَّ ما قاله المفسرون من أسباب النزول إنّما هو على سبيل المثال لتوضيح الألفاظ، وليست معاني الألفاظِ والآياتِ مقصورةً عليها[24].

يقول الدكتور محمد أبو عاصي موضِّحًا ومحذِّرًا: «العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فليست أحداثُ النزول قيودًا تتقيّدُ بها الدلالةُ القرآنيّة وتظلّ حبيسَةً في دائرتها، وإنما هي في انطلاقها وعمومها تخاطبُ البشريّةَ في كلّ زمان ومكان..تصدع بالحقّ، وتدعو للتي هي أقوم، واحْذَرْ ما يقوله مَلاحدةُ

هذا الزمن وعبيدُ يهود من أنَّ ارتباطَ الآياتِ بأسباب نزولها يرفعُ عنَّا التكليفَ بما فيها!»[25].

06- الاهتمام بالمناسبات:

من أقسام المناسبات التي عَنَى المؤلِّفُ بإبرازها المناسبةُ بين مضمون الآية وفاصلتها؛ ومن ذلك إظهارُ العلاقةِ بين موضوع قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ (التوبة: 111) وبين خاتمة الآية الكريمة؛ إذ يقول: «ألا يحقُّ أن يقول في خاتمته: ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ وأيُّ فوزٍ في الدنيا يضاهيه لمن يُضحّي بنفسه وماله في سبيل إبليسَ والطاغوتِ؟ أيضاهيه تسجيلُ رسمه في قسم بلدٍ؟ أو في ميدانٍ أو شارعٍ أو نهجٍ أو غير ذلك؟ كلاَّ وألفُ كلاَّ!! إنْ هي إلاَّ أسماءٌ سَمَّوْها في مخيِّلاتهم لا تمتُّ إلى الفوز الحقيقيِّ في الواقع بأيِّ سببٍ...»[26].

07- إبراز لطائف الآيات:

أشارَ المؤلِّف في النافذةِ السابعةَ عشرةَ "في مخاطبة الملائكة وأهل الجنة لأهل النار" إلى الحكمة من تكرار السؤال الآتي على الكافرين: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ﴾ وذلك من خلال قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (الأحقاف: 34) وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (الأنعام: 30) لاحظ المؤلِّفُ تكرار ورودِ السؤال معَ كون الجواب واحدًا؛ وهو الاعتراف والاستسلام لربِّ الأربابِ، ومع كون المترتِّبِ عليه واحدًا وهو مضاعفة العذاب، فقال: «وذلك لأنّهم أصرّوا على الإنكار ولم يتوبوا منه حتى جاءهم الموتُ وهم على إصرارهم، فكان تكرار السؤال عليهم مرارًا كإصرارهم مرارًا...»[27].

08- طرح الإشكال وإرجاعُ العلم إلى منزل الكتاب (عدم تكلّف الجواب):

يقول المؤلّف في النافذة الثامنةَ عشرةَ "في مخاطبة الكافرين من النار لأهل الجنّة والملائكة": «لقد وردت كذلك آياتٌ بيّناتٌ في مخاطبة الكافرين لأهل الجنّة والملائكة من النار، والله أعلم كيف كانت وهم في النار لهما، ولعلّ الله يجعلُها لهما باللاَّسِلْكِيِّ كما هي في الدنيا؛ يتخاطبُ الناس في الدنيا وهم في أبعادٍ شاسعةٍ، أو يُضخِّمُ أصواتَهم بينهما، والله أعلم بما ينزل»[28]. يحسُن بالدارس أن يَطرح إشكالاتٍ وتساؤلاتٍ، ويقترح أجوبةً محتمَلاتٍ، من غير أن يجزمَ على قولٍ فصلٍ حين تُعوِزُه الدلائلُ البيّنات، خاصّةً ما يتعلّق بعالَم الغيب، الذي لا يُدرَك إلاّ عن طريق الوحي المبين، ﴿ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (البقرة:32).

09- التوازن والوسطية:

اِجتهد المؤلّفُ على إبراز الدرب الوسَطِ أثناءَ بيانه لمعنى حبّ الدنيا وحبّ الآخرة، داعيًا إلى العمل لهما معًا قدر المستطاع؛ فبعد حديثه عن حبِّ الدنيا وبيان عواقبها الخطيرة في حياة الفرد والمجتمع؛ منها: محاربةُ الله سبحانه وتعالى بأكل الرِّبا، وطغيانُ البغي على الناس: دمائِهم وأعراضهم وأموالِهم... فبعد التحذير من خطورة داء حبّ الدنيا واتخاذِها غايةَ المسعى والغرَضَ المبتَغى، قال: «ليس هذا أن يميل الناسُ للكسل وترك العمل، ولكن كما قلتُ أن يعملوا ويعملوا ويعملوا قدر مستطاعهم لدُنياهم وآخرتهم... وخيركم من أخذ من هذه وهذه»[29].

روي في الأثر عبارة قريبة من هذه، هي: «ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة ولا الآخرة للدنيا ولكن خيركم من أخذ من هذه لهذه»[30].

10- نوافذ القرآن وتحريك الإيمان:

تحريكُ الإيمان من مقاصد "نوافذ القرآن"؛ ففي خاتمة الحديث عن كلّ نافذتين يجتهد أبو اليقظان على إيقاظ الغافلين عن هذه المشاهد اليقينية المصيريّة! متأسِّيًا بالمبشِّر النذيرِ رسولِنا محمدٍ ﷺ الذي رُوي عنه أنَّه قال: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا وَلَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا»[31] ويزدادُ الداعية المخلصُ

الناصحُ الأمينُ شفقةً على قومه وسائرِ مَدعُوِّيه حين يجدهم غافلين عن مشاهد هذا اليوم القريب!، الذي لاَ ﴿ لَّا بَيۡعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ ﴾ ولا تنفع فيه توبةٌ ولا ندامــــة، ﴿ يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗاۗ ﴾ (آل عمران:30) لذلك كان الشيخ يحرصُ على عَقد المقارنات بين كلّ نافذتين، ويُخلصُ النصحَ وتذكيرَ المؤمنين وتحذيرَ الغافلين...

مِثالُ ذلك قولُه في نهاية النافذة الرابعة "كيف يَتَوَفّى اللّه الكافر": «ولولا ما في هذه المشاهد الأوليّة المروّعة التي هي على أبواب الآخرة وحدها فقط لما فرّط الإنسان في جنب اللّه الذي خلقه ورزقه وغمره بنعمه منذ أن أوجده في بطن أمّه إلى أن توفّاه اللّه إليه، لولا ذلك لَمَا عصاه طرفة عين لو كان له ذرّةُ عقلٍ وشعاعٌ من نور الإيمان، ولكن ﴿ قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ﴾ (عبس:17)» [32].

وقولُه في النافذة السادسة "حال الكافر في القبر": «فليحذر المسوفون المسرفون من هذا المصير! حتى لا يكون جوابهم من اللّه عزَّ وجلَّ قولُه تعالى: ﴿ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴾ (المؤمنون:100)» [33].

وقولُه في النافذة العاشرة "في إيتاء الكافر كتابَه بشِماله أو من وراء ظهره: «فالعاقل البصيرُ يجعل في الدنيا حسابَه لهذا اليوم العسير (﴿ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ غَيۡرُ يَسِيرٖ ﴾ (المدثر: 10) بل يجعل الحساب عندما يأوي إلى فراشه مساء كلّ يومٍ، كما يجعل فيه تقويمَه له ماذا ربح وماذا خسر فيه؟ فإن كان ربحًا زاد في غده من أسبابه، وإن كان خسارةً فحَص فحصًا دقيقًا من أين مساربُ الخسارة فيتوقّاها في غَدِهِ.

هذا كلُّه في الدنيا الزائفة فكيف بأيّام الآخرة الباقية؟ إمّا في نعيمٍ دائمٍ وإمّا في جحيمٍ دائمٍ... وهنا يكمنُ الغَبنُ، وهنا تكمنُ الخسارةُ يومَ يُقالُ له: ﴿ وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴾ (يس: 59)» [34].

وقولُه في النافذةِ السادسةَ عشرةَ "في ندوة أهل النار": «فليعتبر المجرمون المنحرفون عن صراط اللّه الذي شرعه لهم لسعادتهم في دنياهم وآخرتهم، وهو العليم بمصالحهم الحكيم الذي هو -لا همْ- أعلمُ بما فيه خيرُهم وسعادتهم في

الدارين ولْيفتحوا عيونَهم لسُنَنِه في الأمم السالفة قبلَهم، وهي لن تتبدّل ولن تتحوّل، وقد أقام اللّه عليهم حجّتَه وأبلغتها إليهم مذابيعُ الدنيا كلُّها في المشارق والمغارب بعد الأنبياء والرسل والعلماء في منابرهم وصحفهم وكتبهم ومجلّاتهم...»[35].

ثامنًا: "فتح نوافذ القرآن" والمنهج الموضوعيّ لتفسير القرآن:

هل يصلح كتابُ "فتح نوافذ القرآن" نموذجًا لمنهج التفسير الموضوعيّ؟

إنَّ الدارس لكتاب "نوافذ القرآن" والباحث عن منطلقه ومساره ومقصده يلاحظُ الآتي:

أوّلاً: المنطلق والباعث على تأليف الكتاب هو الواقع المزري، وشعورُ المؤلِّفِ بواجب إصلاحه.

ثانيًا: مساره وطريقته في التأليف: جمعُ الآيات وترتيبُها مع بيان معانيها منسَّقةً في نوافذها.

ثالثًا: الغرض من فتح نوافذ القرآن هو إيصال أنوار هدايته إلى بصائر الناس، فيخرجهم من الظلمات إلى النور بإذن ربهم؛ فتتحسّنَ بفضل تلك الهداية أوضاعُهم وتصلُح طباعُهم، فيحيَون بذلك الحياةَ الطيّبة وما عند اللّه خيرٌ وأبقى.

بعد تأمّل هذه الجوانب الثلاثة يتّضحُ أنَّ "فتح نوافذ القرآن" يصلح أن يكون نموذجًا للتفسير الموضوعيّ، ذلك أنَّ التفسير الموضوعيَّ ينطلق من الواقع إلى النصّ القرآنيّ حيث يجمع الدارسُ ما تفرّق في القرآن الكريم من الآيات التي لها علاقة بموضوع بحثه، وتخدمه من إحدى زواياه، ويدرسها دراسةً خاصّة؛ يتوصّل من خلالها إلى تحديد النظرة القرآنية إلى الموضوع المدروس، ليرجع في الأخير إلى واقعه مصلحًا إياه بتسليط أشعّة الهدايات القرآنية عليه. "الواقع ↔ النص".

يقول الأستاذ الدكتور محمد درّاجي محدّدًا مجالَ هذا الكتاب واتجاهَه الهدائيَّ: «وإلى جانب المقالات الصحفيّة التي تعدّ نموذجًا رائدًا للمقال التفسيريّ الهدائيِّ، فقد كتب الشيخُ أبو اليقظان كتابًا في تفسير القرآن تحت عنوان

"نوافذ القرآن" يصلح نموذجًا للمنهج الموضوعيّ في التفسير، وقد تجلّى فيه التركيزُ على الهداية القرآنيّة»[36].

تاسعًا: ملاحظات حول الكتاب:

01- عنوان الكتاب عامٌّ يراد به الخاصّ؛ فإنّ المؤلِّف عمّم تسمية العنوان "فتح نوافذ القرآن" إلاَّ أنّه حصر فتح النوافذ على أحوال الآخرة، والاطّلاع على مصير كلٍّ من الأشقياء والأتقياء.

02- الكتاب أقربُ إلى حقل "العقيدة" منه إلى حقل "التفسير"؛ حيث إنَّ الآياتِ المرادَ تفسيرُها كلَّها تتعلّق بركنٍ من أركان الإيمان، هو الإيمان باليوم الآخر، وأرى أنَّه يصحُّ أن يُوضعَ للكتاب العنوانُ الآتي: "اليوم الآخر في القرآن الكريم".

03- الأنسب في جدول المقارنات أن يكون على شكلِ مقابلةٍ بين النقاط المتعلّقة بالأتقياء والأشقياء، يُعطى لكلّ منها رقمٌ موحَّدٌ؛ مثلا:

1- طعام أهل الجنّة...	1- طعام أهل النار...
2- شراب أهل الجنّة...	2- شراب أهل النار...
3- لباس أهل الجنّة...	3- لباس أهل النار...

ثم تورد بقية النقاط التي تتعلّق بأحدِ الفريقين دون الآخر.

ويبدو أنَّ عدم الالتزام بهذه الطريقة قلّل من أهمية إبراز التمايز بين الفريقين، وجعلَ جدول المقارنات أشبه بخلاصةٍ لكلّ نافذتين متجاورتَين.

04- الاعتمادُ في مسائل الغيب على أحاديث نبويّة بحاجة إلى تخريج، بل إنَّ منها ما هو من الأقوال المأثورة عن العلماء، ومن موقوفات الصحابة رضوان اللّه عليهم، وكان المؤلِّف يكتفي بعزوِها إلى مراجعه التي اقتبسَها منها: "تيسير التفسير" و"الجُنّة في وصف الجنّة" للقطب اطفيّش، و"الترغيب والترهيب" لعبد العظيم المنذريّ. وهذا لاَ يُعدُّ تقصيرًا من الشيخ رحمه اللّه، بل نلتمسُ له أعذارًا، لعلَّ أكبرها اعتبار حالته الصحيّة؛

إذْ أصيبَ بالشَّلَلِ النصفيّ الذي أقعدَه عن الحركة سنة 1376 هـ /1957م، أي منذ عشرِ سنينَ قبلَ تأليف هذا الكتاب (1957- 1967م).

05- اِعتاد المؤلّف أن يوردَ عند الحديث عن كلّ نافذة حوالي أربع آيات... إلاّ أنّه في النافذة الخامسة "في حال المؤمن في قبره" أورد آيةً واحدةً وحديثين شريفين، ويلاحَظُ أنَّ الآيةَ الكريمةَ أقربُ في الدّلالة على النافذة الثالثة "كيف يتوفّى الله المؤمنَ؟" وهي قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ﴾ (الواقعة: 90- 91)

06- لم يَستشهد المؤلّف بالآيات القرآنيّة على موضوع النافذتين الأخيرتين الثالثةِ والعشرين والرابعةِ والعشرين "ماذا ربح المؤمنون وماذا خسروا؟ / ماذا ربح الكافرون وماذا خسروا؟ " ولم يختم المبحثَ بوضع جدول المقارنات، وعلّل ذلك بقوله: «إنَّ هاتين النافذتين:... في غُنيةٍ عن عَقد مقارنةٍ بينهما؛ ففيهما مقارنةٌ طبيعيّةٌ لأولى الألباب»[37]. إلاّ أنّه يُفهم من كلامه - رحمه الله- في النافذة الأخيرة أنَّ الكافر لا يخسرُ شيئًا في هذه الدنيا؛ كأنَّها هي جنّتُه التي يسلَمُ فيها من كلِّ ما قدْ يُصابُ به المؤمن، وينعَمُ فيها بالمال والأهل والعزّ والسلطان مادام حيًّا!. يقول رحمه الله: «أمّا أرباح الكافرين فهي في الدنيا:

1- المال والأولاد والنساء، والعزّ والسلطان في نحو ستين عامًا أو مائة عام على أكثر تقدير.

2- سلامتهم من البلاء في مثل تلك المدّة مما يُصابُ به المؤمنون»[38]. إلاّ إذا كان الشيخ يقصد أنَّ هذه الأرباح هي افتراضُ أقصى ما يُتصَوّرُ أن يستفيدَه الكافرُ في هذه الدنيا الفانية، وإلاَّ فإنَّ الآياتِ القرآنيّةَ ناطقةٌ على أنَّ الدنيا دار ابتلاء لجميع البشر كافرِهم ومؤمنهم، وإنّ الأحداث اليوميّة شاهدةٌ على ذلك؛ فكلُّ البشر معرّضون للإصابة بالخير والشرّ؛ من ذلك قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ﴾ (الفجر:15- 16) وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعٗا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ﴾ (المعارج: 19- 21)

هذا عن الجانب المادّيّ، أمّا عن الجانب النفسيّ وطمأنينة القلب فإنَّ اللّه قضى أن لا يَحصُلَ ذلك إلاَّ في رحاب الإيمان ونور الهداية؛ إذ يقول: ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ (طه: 123- 124) ويقول عزَّ وجلَّ: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (النحل: 97)

وأمَّا ما جاء في الحديث النَّبويّ مِن أنّ «الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ»[39] فهي باعتبار حال كلّ واحدٍ منهما في الدنيا مقارنةً بما يستقبلُه في الآخرةِ دارِ الجزاء والخلود، ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ (الحديد: 20).

خاتمة:

01- مؤلَّفات الشيخ أبي اليقظان في مجال التفسير تفوق العشرة، عدا مقالاتِه التفسيريّة العديدة.

02- يبدو النَّسق المنهجيّ موحَّدًا في كتابات الشيخ أبي اليقظان في التفسير؛ وهو المسلك الهدائي الإصلاحيّ.

03- جعل الشيخ أبو اليقظان من القرآن الكريم منطلقَ دعوته لإصلاح الأوضاع وتغييرِ الطِّبَاع، ورأى بأنَّ جميع أمراض المسلمين يوجَد شفاؤها في هداية القرآن الكريم، فرأى أنَّه من الواجب عليه "فتح نوافذ القرآن".

04- اِجتهد أبو اليقظان في "فتح نوافذ القرآن" على إيقاظ النائمين وتنبيه الغافلين عن الإعداد لليوم الآخر، فاتخذ من آيات القرآن الكريم نوافذ تنير البصائر وتطلعها على حقائق المصائر، إذْ اجتهد في فتح النوافذ المُشْرِفَةِ على مشاهد القيامة، الكاشِفَةِ لأحوال أهل الشقاوة وأهل السعادة.

05- "نوافذ القرآن" يتميّز بخصائصَ عديدة؛ منها: "التوازن والوسطية"، و"المنهج الموضوعيّ لتفسير القرآن"، ومنها أيضًا: "مقارنات الكتاب بين النافذتين..." إذْ كان يختم الحديثَ عن كلّ منزلةٍ من منازل يوم القيامة بعقدِ مقارنةٍ بين نافذَتَيْ الأشقياء والأتقياء؛ يُبرزُ من خلالها تمايزَ الفريقين في كلّ

المنـازل، وفي هـذه المقارنـات عِـبرةٌ وذكـرى ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ (ق:37).

إقتراحات:

01- تحقيق "نوافذ القرآن" وسائرِ تراث الشيخ أبي اليقظان.

02- إحداث نوافذَ لـ "نوافذ القرآن" (قنواتٍ لنشره: مقرّرات دراسيّة- حلقات مسجديّة- حلقات إذاعيّة...) ليصل هذا النور من الأوراق والكتب المهجورة إلى الآذان والقلوب والميدان بطريقةٍ ميسورة.

03- إنتاج أفلامٍ لتقريبِ صُوَر اليوم الآخر الثابتةِ عبر نوافذ القرآن وما وافقت من أحاديث المصطفى العدنان؛ ولكن ينبغي أن يتمّ عرضُ مشاهدِ أهل الوعيد وأصحاب الجحيم بطريقة متكاملة مع مشاهد الأتقياء وأهل النعيم، لئلاَّ يصابَ المتلقّي بالقنوط، ولا بالغرور؛ بل يُقبِلُ على الله بجدّ رغبًا ورهَبًا، ويعيش في دنياه متفائلاً متوازنًا فاعلاً، يعمرُ الدنيا ويريدُ الآخرة، ممتثلاً قول الشاعر الحكيم:

كُنْ رابطَ الجأشِ وارفعْ رايةَ الأملِ وسرْ إلى الله في جِدٍّ بلا هَزَلِ

04- الاهتمام بالتفسير الموضوعيّ؛ لتيسير فتح نوافذِ القرآن الكريم على مواضيعَ أخرى لتستنيرَ جميعُ مجالات حياتنا بنور الهدايات القرآنيّة؛ مصدرِ الحياة الطيّبة وسببِ السعادة في الدارَين.

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ (الإسراء: 09).

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

المصادر والمراجع:

- إبراهيم أبو اليقظان: فتح نوافذ القرآن، جمعية التراث، الطبعة1: 1411هـ/1991م.

- إبراهيم بيوض: في رحاب القرآن، المطبعة العربية، نشر جمعية التراث، غرداية.

- أحمد توفيق المدني: حياة كفاح.

- فضل حسن عباس: إتقان البرهان في علوم القرآن، دار النفائس- الأردن، ط2، 1430هـ/2010م.

- فهد الرومي: بحوث في أصول التفسير ومناهجه، مكتبة التوبة، الرياض: ط4، 1419هـ.

- صلاح عبد الفتاح الخالديّ: تعريف الدارسين بمناهج المفسرين، دار القلم، دمشق، ط1، 1423هـ/2002م.

- محمد أبو عاصي: أسباب النزول تحديد مفاهيم وردّ شبهات، دار البصائر.

- محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاريّ، ضبط وترقيم وتخريج مصطفى ديب البغا، ط3 دار ابن كثير، اليمامة- بيروت، 1407هـ/1987م.

- محمد دراجي: المقال التفسيريّ الهدائيّ من جمال الدين الأفغاني إلى إبراهيم أبي اليقظان- مجلة الموافقات، كلية العلوم الإسلامية، جامعة الجزائر، ع5.

- محمد صالح ناصر: المطبعة العربية معلَم وطنيّ مجهول (1931- 1962م) مكتبة الريام، الجزائر، 1429هـ/2008م.

- محمد قطب: لا إله إِلاَّ اللّه، عقيدة وشريعة ومنهاج حياة، دار الشروق، ط2، 1993م..

- امحمد المطهري: فتح المغيث في علوم الحديث، تح: أحمد حمو كروم وعمر أحمد بازين:، المطبعة العربية، غرداية، ط1، 1419هـ/1999م.

- محمد ناصر بوحجام: أهمية قراءة فكر الشّيخ أبي اليقظان، موقع الشيخ أبي اليقظان.

- محمد الهادي الحسني، الشيخ أبو اليقظان وكتابه" سليمان الباروني"- مجلة الموافقات، كلية العلوم الإسلامية، جامعة الجزائر، ع5.

- مسلم بن الحجاج، أبو الحسين القشيريّ النيسابوريّ ، صحيح مسلم، تح محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ط، د.ت.ن.

الهوامش:

(1) إبراهيم بيوض: في رحاب القرآن، سورة سبأ: 214/13؛ سورة الدخان: 94/18.

(2) محمد الهادي الحسني، الشيخ أبو اليقظان وكتابه" سليمان الباروني"- مجلة الموافقات، كلية العلوم الإسلامية، جامعة الجزائر، ع5/ص460.

(3) أحمد توفيق المدني: حياة كفاح: 157/1.

(4) صلاح عبد الفتاح الخالديّ: تعريف الدارسين بمناهج المفسرين:138.

(5) اِعتمد البحث طبعة جمعية التراث، الطبعة1: 1411هـ/1991م، 132 صفحة.

(6) محمد صالح ناصر: المطبعة العربية معلَم وطنيّ مجهول (1931- 1962م) مكتبة الريام، الجزائر، 1429هـ/2008م. ص:05.

(7) أبو اليقظان: فتح نوافذ القرآن: 08.

(8) المصدر نفسه، ص: 08- 09.

(9) المصدر نفسه، ص: 10.

(10) المصدر نفسه، ص: 09.

(11) المصدر نفسه، ص: 108.

(12) المصدر نفسه، ص: 103.

(13) محمد ناصر بوحجام: أهمية قراءة فكر الشّيخ أبي اليقظان، موقع الشيخ أبي اليقظان.

(14) محمد صالح ناصر: تقديم كتاب فتح نوافذ القرآن، ص:05.

(15) هذا القول «من كلام الحسن البصريِّ، وَقِيلَ: من كلام مالك بن دينار، أو من كلام سَيِّدنا عيسى بن مريم» (امحمد المطهري: فتح المغيث في علوم الحديث، تح: أحمد حمو كروم وعمر أحمد بازين:، المطبعة العربية، غرداية، ط1، 1419هـ/1999م، ص: 233).

(16) أبو اليقظان: فتح نوافذ القرآن: 131.

(17) المصدر نفسه، ص: 117.

(18) محمد قطب: لا إله إلاَّ الله، عقيدة وشريعة ومنهاج حياة: 36.

(19) في رحاب القرآن، سورة السجدة: 50/12.

[20] في رحاب القرآن، سورة النور: 434/6.

[21] أبو اليقظان: فتح نوافذ القرآن: 79.

[22] المصدر نفسه، ص: 105.

[23] المصدر نفسه، ص: 27.

[24] فهد الرومي: بحوث في أصول التفسير ومناهجه: 137.

[25] محمد أبو عاصي: أسباب النزول تحديد مفاهيم وردّ شبهات: 130، عن إتقان البرهان:378/1.

[26] أبو اليقظان: فتح نوافذ القرآن: 14.

[27] المصدر نفسه، ص: 96.

[28] المصدر نفسه، ص: 98.

[29] المصدر نفسه، ص:131.

[30] رواه ابن عساكر والديلمي عن أنس بلفظ: "ليس بخيركم من ترك دنياه لآخرته ولا آخرته لدنياه حتى يصيب منهما جميعا فإن الدنيا بلاغ إلى الآخرة ولا تكونوا كلا على الناس". وأخرجه أبو نعيم والخطيب في تاريخه والديلمي من وجه آخر. (اسماعيل العجلوني: كشف الخفاء ومزيل الالباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس: 169/2.

[31] رواه البخاري، باب: كيف كانت يمين النّبيءﷺ، ح: 6146.

[32] أبو اليقظان: فتح نوافذ القرآن:37.

[33] المصدر نفسه، ص:49.

[34] المصدر نفسه، ص:63.

[35] المصدر نفسه، ص:91.

[36] محمد دراجي: المقال التفسيريّ الهدائيّ من جمال الدين الأفغاني إلى إبراهيم أبي اليقظان- مجلة الموافقات، كلية العلوم الإسلامية، جامعة الجزائر، ع5/ص385- 386.

[37] أبو اليقظان: فتح نوافذ القرآن:123.

[38] المصدر نفسه.

[39] رواه مسلم في كِتَاب الزُّهْدِ وَالرَّقَائِقِ، حديث: 5256.